العرب
الخميس 2020/01/09
السنة 42 العدد 11581

منتجة أفلامٍ تدير أكبر شبكة عربية للصحافة الاستقصائية

روان الضامن لـ«العرب»:

على الصحافيين العرب الاستعداد لعصر جديد

● الصحافي الاستقصائي العربي كما تراه الضامن لديه ميزات متنوعة اليوم، مع توسع إمكانيات الوصول للبيانات. «الصورة للضامن خلال تسلُّمها جائزة الإبداع الإعلامي في مؤسسة الفكر العربي من الأمير خالد الفيصل».

● الضامن تصف الفترة التي ساهمت فيها بتأسيس جائزة الشارقة للاتصال الحكومي والتي كانت عضواً في لجنة تحكيمها لأربع دورات، بأنها اتسمت بالابتكار والاستقلالية التامة.

عبدالله مكسور
كاتب سوري

تروي المستشارة الإعلامية المتخصصة في صناعة المحتوى التلفزيوني والرقمي روان الضامن حكاية من التراث الشعبي، تعتبرها منهاجَ حياةٍ تسيرُ بهديها. تقول الحكايــة: إن حريقاً هائلاً شــبَ في غابة نائية، فهرب جميع السـكان منها بما في ذلك الحيوانات التي اتّخذت من الأجمات مــلاذاً لسـنوات طـوال، وقـف الجميع مُتفرّجين علىٰ الانهيار، بينما كان الهدهدُ، وحيداً، يطير مـن غيمة إلىٰ أخرى حاملاً قطـرة ماءٍ من هنا وقطرةً من هناك ليطفئ النـار أو يخفّف من جذوتها، صاح بعض الواقفـين: أتظَـنُّ أيها الهدهـد أنّك بهذه الكمية القليلة ستنهي النار، ليردّ الهدهد وقد أخذ منه التعـب جانباً: إني أفعل ما أستطيع كي لا يقول التاريخُ إني لم أفعل شيئاً.

الضامـن التـي وُلدت فـي العاصمة الأردنيـة عمـان لوالديـن مـن أصـل فلسـطيني، عرفت مبكّراً أن جميع طُرقِها سـتؤدي إلىٰ فلسطين مهما كانت الوِجهة المرحلية. أنجزت مع شقيقتها عندما كانتا في المرحلـة الإعدادية كتاباً عـن الذاكرة الشفاهية التي تحفظ الرواية الفلسطينية تحت عنوان "أطفال فلسطين، أيام زمان"، ثم أتبعته بكتابٍ ثانٍ في التاريخ الشفوي الفلسطيني حملَ اسمَ "التهجير في ذاكرة الطفولة"، ولتنجز بعد ذلـك كتاباً بحثياً وُسِم بـ"مدارسنا في قفص الاتهام".

أدركت في سـنواتها الأولىٰ أنّه قريباً سـيموت جميع الشهود الأحياء وستغدو الروايـة الفلسـطينية للنكبـة وما حدث قبلهـا وبعدها مجـرّد حكايـات متقطعة تقتصر علىٰ الإشارة إلىٰ الأصول البعيدة فقـط، هذا مـا دفعهـا، رغـم تفوقها في الثانوية العامة العلمية، لدراسـة الإعلام وعلـم الاجتمـاع فـي جامعة بيـر زيت، حيـث كانـت علىٰ قائمـة الشـرف طيلة فترة دراسـتها التي قادتها أكاديمياً بعد إنهاء البكالوريـوس إلىٰ جامعة ليدز في المملكة المتحدة لتنهي في عام 2003 درجة الماجسـتير بمرتبة الشـرف فـي الإعلام بتخصص الأفلام الوثائقية.

صناعة المحتوى

درّسـت الضامن الإعلام في جامعات فلسـطين والأردن، وعملت في مؤسسات محليـة وعربية ودولية. عمـل تلفزيوني مسـتمر في مـدن مختلفة، مـن صحراء أتاكاما في التشيلي وصولاً إلىٰ العاصمة النرويجيـة أوسـلو مـروراً بأغلب المدن العربيـة والأوروبية، أنتجَـت خلال تلك السـنوات أكثـر مـن عشـرين وثائقيـاً وتحقيقاً مسـجّلاً باسـمها، كما أشرفت علىٰ إنتـاج أكثر من 250 سـاعة وثائقية أخرجها مخرجون عرب وأجانب.

عمل الضامن التلفزيوني المستمر يقودها إلى أماكن عديدة في العالم، من صحراء أتاكاما في تشيلي وصولاً إلى العاصمة النرويجية أوسلو مروراً بأغلب المدن العربية والأوروبية، فأنتجَت وأشرفت على إنتاج أكثر من 250 ساعة وثائقية أخرجها مخرجون عرب وأجانب

أبرز أعمالها سلسـلة أفـلام "النكبة" بأربعة أجزاء والتـي قدّمت رواية النكبة الفلسـطينية اسـتناداً إلـىٰ الوثائـق المحفوظة والأرشيف البريطاني بالإضافة إلىٰ روايات الشهود، والتي عالجت النكبة ليسـت بوصفها حدثاً جلـلاً وقعَ في عام 1948، ولكـن باعتبارهـا نتيجـة حـدث مسـتمر حتىٰ اليوم، مقدماته بدأت بعيداً عـام 1799. بالإضافـة إلىٰ سلسـلة أفلام "أصحاب البلاد" في خمسـة أجزاء والتي أعادت تقديم المجتمع العربي في فلسطين التاريخيـة، ليـس بوصفـه مجتمعـاً ذا صبغة أقلية ثقافية يسعىٰ إلىٰ استقلالية بشـكل ما، بـل بوصفهم أصحابـاً للبلاد ومِن خِلالهم تمت إعادة وضع عكا وحيفا ويافا والجليل بشـكل أقـرب في الذهنية العربية، تمثّل هذه السلسـلة أساساً لكل من يريد فهـم واقع المجتمـع العربي في فلسـطين التاريخية. هاتان السلسـلتان تمّـت ترجمتهمـا إلىٰ لغات عـدة، كما تم عرضهما فـي مهرجانـات وثائقية دولية حيث حازتا جوائز مختلفة.

الطريق إلى الشارقة

لا يقتصـر نشـاط الضامـن وجهدها علـىٰ الإنتـاج والإشـراف الإعلامـي والتدريـب فقـط، بل سـاهمت أوائل عام 2013 بالتأسيس لجائزة الشارقة للاتصال الحكومـي التي انطلقت في ديسـمبر من نفس العـام بإشـراف المكتـب الإعلامي لإمارة الشـارقة الذي بـدأ بفكرة طموحة انبثقـت عن منتـدى الشـارقة للتواصل، حيـث تسـعىٰ هـذه الجائزة، المسـتمرة حتـىٰ اليوم، لضبـط الجـودة الإعلامية وتطويـر أداء المؤسسـات الحكومية في دولة الإمارات العربيـة المتحدة والخليج العربي.

اسـتقبلت جائزة الشـارقة للاتصال الحكومـي في دورتهـا الأولـىٰ أكثر من 400 مشاركة، وقد شـغلت الضامن مقعداً في لجنـة تحكيم الجائزة لأربع سـنوات متتالية، تصـف تلك الفتـرة اليوم بأنها تمتعـت بالابتـكار والاسـتقلالية التامة والشـفافية الكاملـة. وبنـاء علىٰ نجاح هـذه التجربـة عملت ضيفتنـا من خلال عضويتهـا فـي الأمانـة العامـة لمنتدى فلسـطين الدولي للإعـلام والاتصال علىٰ إطلاق جائزة فلسـطين للإبداع الإعلامي عام 2016، وهي جائزة في دورتها الثانية حالياً وتعقد مرةً كل عامين وتسـتهدف الأعمال المرئية والمسموعة والرقمية التي تقـدم فلسـطين بطريقة إبداعيـة مجدّدة شكلاً وموضوعا.

الضامـن التـي حـازَت علـىٰ جائزة الإبـداع الإعلامـي مـن مؤسسـة الفكر العربـي فـي بيـروت عـام 2015، أنجزت الوثائقـي الاسـتقصائي "ثمن أوسـلو" الـذي يروي عبـر جزأين القصـة الكاملة التـي لـم يروها أحـد حـول المفاوضات السـرية بيْن مَنظمة التحرير وإسـرائيل فـي العاصمـة النرويجيـة أوسـلو. كما ترأسـت لجنة تحكيم جوائز شـبكة أريج "إعلاميون من أجل صحافة اسـتقصائية عربية" ثم انضمت إلىٰ البرنامج التدريبي في ذات الشـبكة لتقـدّم مسـاقاً تدريبياً لأول مـرة، عبر الإنترنـت، باللغة العربية حول السـرد القصصي الرقمـي، قبل أن تصبح مطلع عام 2019 عضوة في مجلس الإدارة، ويتم إعـلان اختيارها خلفاً لرنا الصبـاغ كمديـرة تنفيذيـة للشـبكة مع انعقاد مؤتمر أريج الثاني عشر للصحافة الاسـتقصائية السـنوي فـي العاصمـة الأردنيـة عمـان بمشـاركة أكثـر من 500 صحافـي عربي وأوروبـي نهاية نوفمبر الماضي. العرب التقت الضامن في أسبوع عملهـا الأول ليكون هذا الحوار هو اللقاء الأول عربيـاً مع المديرة التنفيذية لشـبكة أريج حول واقع الصحافة الاسـتقصائية العربية. عن واقع الصحافة الاستقصائية العربيـة تقول الضامـن إنّ "الواقع الذي تعيـش فـي ظله غالبيـة الـدول العربية وطبيعـة الأوضـاع السـائدة فيهـا علىٰ مسـتوى المجـالات كافـة، تفـرض علىٰ الصحافـة العربية الاسـتقصائية القيام بدورهـا ومسـؤولياتها في الكشـف عن مظاهر الفسـاد والتجاوز علىٰ المال العام والانحرافات بالسلطة وإساءة استعمالها؛ إنّ هـذه المظاهر التي تسـود فـي العديد من البلـدان العربية تجعـل اتّباع المنهج الصحافي الاسـتقصائي اليـوم ضرورة أساسية في العمل الإعلامي".

فالصحافـي الاسـتقصائي العربـي كمـا تراه الضامـن لديه ميـزات متنوعة اليـوم خاصة مع وجود مسـاحة للولوج إلىٰ قواعد البيانـات وإمكانيات متقدمة، مقارنة بعشـر سـنوات مضت، لاستخدام التكنولوجيـا والعالـم الرقمي في إنجاز التحقيقـات، وفـي ذات الوقـت أمـام الصحافي الاسـتقصائي العربي تحديات ضخمة مختلفـة، أبرزها يتعلق في كيفية العمل ضمن المؤسسات الإعلامية العربية التي لا تدعم عمل الصحافة الاستقصائية للعديد من الأسـباب، خاصةً أن الصحافة الاسـتقصائية عمل مكلف علىٰ المسـتوى المـادي وعلىٰ المسـتوى السياسـي حيث تخضـع المؤسسـات التـي تُنتِج هذه التحقيقات لاعتبارات عديدة.

كل هذه الصورة السابقة بما تحمله من إشكاليات تتضمن وجود إنتاجات يُطلَق عليها "تحقيقات استقصائية عربية" وما هي إلا حشو وبهار، حسب وصف الضامن، تدفع بميدان الصحافة الاستقصائية الحقيقية إلىٰ الواجهة من جديد كونها أرضية خصبة للشفافية والمساءلة.

مديرة شبكة أريج تقول لـ«العرب» إن الصحافة الاستقصائية أرضية خصبة للشفافية والمساءلة، على الرغم من كونها عملاً مكلفاً على المستوى المادي والسياسي

الصحافة المُعمَّقة

تتابع المديرة التنفيذية لشبكة أريج حديثها عن المقومات اللازمة للنهوض بالصحافة الاستقصائية العربية، وتؤكد أولاً علىٰ الحاجة لرفع المهارات الأساسية بالصحافة المُعمّقة ما قبل الاستقصاء، سواء خلال مرحلة الدراسة الأكاديمية أو داخل ميدان العمل في المؤسسات الإعلامية. هذا التأسيس بالمهارات يشمل العالم الرقمي وعالم الرياضيات وقراءة البيانات وصولاً إلـىٰ إتقان اللغـات المختلفة التي تمثّل باباً حقيقياً وأساسـياً للتشـبيك مع مختلف الجهـات العالمية، ومن جانب آخـر فإنـه علـىٰ المؤسسـات الإعلاميـة العربيـة أن تجد طريقاً إلـىٰ الدعم المالي مـن داخـل المؤسسـات نفسـها لإنتـاج العديـد من القصـص والمـواد، لأن كثيرا مـن المؤسسـات، والحديـث لضيفتنـا، تعتبر العمل الاسـتقصائي جاذباً لانتباه الجمهـور بمختلـف شـرائحه العمريـة والثقافية، وتحقيق هـذا يتطلب بالدرجة الأولىٰ رفـد الصحافيين بالمهارات اللازمة لعمليـة الإنتاج بالإضافة إلىٰ توفير الدعم القانوني والصحافي إلىٰ جانب فتح آفاق التشـبيك مع الصحافيين الدوليين، وهذا لا يقتصـر فقـط علـىٰ الولايـات المتحدة الأميركيـة أو دول القـارة الأوروبيـة بمختلـف المؤسسـات والمشـاريع التـي تتخذ من عواصمها مقـرات لها، بل يمتد هذا التشـبيك إلىٰ الهند وآسـيا وأفريقيا ودول أميـركا اللاتينيـة التي نجحَ بعض صحافييها بوضع نظام مالي ذاتي لتمويل عملية إنتاج القصص الاستقصائية، ورفع مهارات الصحافيين بذات الوقت.

الاستراتيجية في أريج

"العرب" تسأل الضامن عن الاستراتيجية التي ستتبعها في الفترة المقبلة لإدارة شبكة أريج، فتقول إن الشبكة تقدّم التدريب النوعي لدعم الصحافيين الاستقصائيين من خلال تنظيمها ورشات متخصصة بمختلف فنون العمل الصحافي الاستقصائي وما يتصل به، فالهدف الآن يقوم علىٰ الاستثمار بشكل أفقي وعمودي برأس المال الصحافي البشري حيث يتم العمل بشكل حثيث ومكثّف علىٰ الربط مع المنظمات والمنصات الدولية، فمشروع شبكة أريج قد وُلد عام 2004 في العاصمة الأردنية عمان بشراكة مع منظمة دعم الصحافة التي تتخذ من كوبنهاغن في الدنمارك مقراً لها، وتطوّرت الشبكة منذ ذلك الحين بدعم المانحين المختلفين، ومنذ انطلاقتها حتىٰ اليوم درّبت الشبكةُ أكثر من 2500 صحافي وصحافية من مختلف الدول العربية، كما أنتجت أكثر من 600 تحقيق صحافي استقصائي.

وفـي المرحلة الحالية فإنّ الشـبكة بصدد إعداد خطة اسـتراتيجية لخمس سنوات قادمـة تمتد حتىٰ 2025، أبـرز ملامح هذه الخطـة كمـا تكشـفها المديـرة التنفيذية للشـبكة تسـتهدف التركيـز علـىٰ زيادة التشـبيك "العربـي – العربـي" بهـدف إنتاج تحقيقـات عابرة للحـدود العربية سـواء أكانت تحقيقات مقـروءة أم مرئية أم مسـموعة أم رقميـة، إلـىٰ جانـب هذا تتضمـن الخطة الاسـتراتيجية فتح آفاق التشـبيك مـع المؤسسـات الدولية بهدف رفـد الصحافيين العرب بأحدث أسـاليب التدريب والتكنولوجيا الرقمية التي تشهد تطوراً يومياً متسـارعاً في عالم الصحافة الدولية.

نواجه المديرة التنفيذية لشـبكة أريج بما يتردد بين أوساط الصحافيين العرب؛ عن أنّ الشبكة تخضع لمزاجية خاصة جداً في اختيـار وتنفيـذ المشـاريع المختلفة؟ فتجيـب بالقـول إن باب التقـديم مفتوح للجميع ويشـترط لإنتـاج التحقيقات أن يكون الصحافي قد خضـع لتدريب ضمن شـبكة أريج، لكنّ عملية اختيار المعالجات للأفكار لا تتصل بأيّ شـكل من الأشـكال بشـخص المتقدّم، لأنهـا تخضع لكثير من المعايير، منها مـا هو داخلي وهذا يتعلق بالقـدرة المالية للشـبكة التي تفرض عددا محدوداً مـن التحقيقات لا يتجاوز عددها الخمـس قصص في الشـهر، بمعنـىٰ أنّ هنـاك حوالـي خمسـين قصة فـي العام الواحد، وكل تحقيق مـن هذه التحقيقات يتشارك فيه فريق عمل متكامل من الخبراء الصحافيـين والقانونيـين، ومنها ما هو لوجيسـتي يتعلـق بالجانـب الأمني وما يتصل بسـلامة الصحافي الذي سـيعمل علـىٰ التحقيـق، خاصـة إذا كان ذلـك الصحافي ضمن منطقة تشهد اضطرابات أو صراعـات؛ أو يعمل علـىٰ ملف يتعلق بكشـف الفسـاد أو تعقُّـب المـال العـام، وبالرغـم من هـذا الواقع تؤكـد ضيفتنا أنّ شـبكة أريج مهتمة دائمـاً بالبحث عن صحافيين جدد وأفكار خلّاقة تسـعىٰ لرفع سـوية صحافة البيانات والسـرد الرقمي واسـتخدام المزيـد مـن الأدوات لتطوير عمليـة التقصـي فـي المصـادر المفتوحة والمغلقة.

صانعـة الأفلام التـي يصفها كثيرون ممّـن عملوا معها بأنها المـرأةُ التي تقوم بـكل المهام معاً، والقادرةُ علىٰ ضبط إيقاع الفريق ضمن وصفةٍ من نقاط عشر تنطلق فـي محتواهـا بحركة متعاكسـة في ذات الوقت؛ من العام إلىٰ الخاص ومن الخاص إلـىٰ العام، كانـت قد كشـفت عنها خلال كلمتها في مؤتمر "تيد إكس" الذي أقامته جامعة بير زيت العـام الماضي، تؤمن أنه علىٰ الصحافيين في كل العالم الاسـتعداد للعصر القادم الذي سيتخلىٰ فيه الجمهور عن وسائل الإعلام التقليدية، وتدرك اليوم أنّ المهمة الأساسـية تبـدأ بالتوازي علىٰ محوريـن اثنـين، الأول تدريبـي خالص يقـوم علىٰ رفد الصحافيـين العرب بأعلىٰ مسـتويات التدريب، والثاني يتصل ببناء جسور التشبيك مع الجميع لخلق أرضية صلبة للصحافة الاستقصائية العابرة من وطننا العربي إلىٰ كل العالم.